د . سهيل ادريس

الصمت والزيف ...

(١)

ذلك الصباح ، حين رأى صور المشوّهين في وجوههم، وظهورهم ، وبطونهم ، ثم قرأ ما صرحوا به عن الوان التهديد والتعذيب والاهانة التي اخضعوا لها ، اقترن بالحزن والمرارة اللذين عاناهما طوال تلك الايام السوداء ، غضب احمر احسّه ضيقا في الصدر كاد يخنق فيه الانفاس ، وارتعاشا في الاطراف وتمتمة مذهولة ..

وحين اطل ، بعد ساعة ، خلال جمهور محتشد ، على تلك الجثث الثلاث ، المحطمة الجماجم والمفقوءة العيون ، اصيب بغثيان لم يستطع ان يدافعه الا بالتعجيل في العودة الى المنزل ، والارتماء فوق السرير في دوار شديد كاد يفقد فيه الوعي ..

مساء ذلك اليوم ، فاجأ نفسه وقد التزم طوال ساعات النهار صمتا عجيبا لم يخرقه الا باجابات مقتضبة على اسئلة اولاده ، حتى لا يظنوا انه اصيب بالبكم ..

ثم لازمه الصمت ، او لازم الصمت ، اياما ..

اصبح يحسّ انه ، اي الصمت ، قد غدا حاجة ملحة ، بل لعله ان يكون الضرورة الوحيدة التي يشعر بها ، ولا بدّ ان يشعر بمثلها كل كاتب يؤرقه الاّ تكون اعظم همومه واشواقه جزءا من هموم شعبه واشواقه ..

لم يحس بحاجة الى الصمت مثل حاجته اليه في اعقاب تلك الاحداث ، لا سيما حين اخذ بعض محرّري الصحف يتصلون به ليسألوه : كيف نبني لبنان الجديد ؟ كيف تتصوّر لبنان المستقبل ؟ كيف وكيف ..

يسألونه عبر التلفون ، ويريدون في الحال جوابا مقتضبا في بضعة اسطر ، في سطرين .. وعلى الفور !

يا آلهي ! ما اشدّ ما تمتهن الكلمة !

ورحماك ايها الصمت ، وحنانيك ..

(٢)

كان يعتقد انهم كثيرون ، اولئك الذين عانوا ما عانى من مشاعر الالم والحزن والغضب والمرارة .. والغثيان !

كثيرون هم اولئك الذين تابعوا احداث العنف الفاشي والكراهية المجرمة والمجازر الدموية ، وحوادث الخطف والتعذيب والتشويه ، واعمال التدمير والتخريب والقنص..

.. وتابعوا تصريحات زعماء الميليشيات الذين كانوا يمجدون الثورة الفلسطينية ، فيما كان زبانيتهم يخوضون في تقتيل رجال المقاومة الفلسطينية ..

.. وتابعوا محترفي السياسة التقليديين الذين كانوا يبدّلون مواقفهم كما يبدلون احذيتهم اللمّاعة .. ويعقدون التحالفات المفاجئة من فوق عداوات تاريخية طويلة ..

.. وتابعوا مواقف الطامحين السياسيين الجدد ، اولئك الذين لا يظهرون على الناس رافضين الا في الازمات.. ليظل الناس يذكرونهم عند الانتخابات ..

.. وتابعوا وسائل الاعلام الصحفية : تذبذب بعضها في الانحيازات ، وتراجعها عند تراجع المبيعات ، والعودة الى سياسة « التوازن » التي تسمّى ليبرالية .. وغوغائية صحف اخرى، وصمت صحف غيرها بحجة الحياد ،وصمود صحف قليلة ، واحدة او اثنتين كانتا تحاولان ان تكونا ضمير الحركة الوطنية والتقدمية ..

.. ثم تابعوا حملات التهدئة والتلطيف ومتاريس الزهور والحلويات التي اعقبت صمت الرصاص والانفجارات .. زهور هشّة تلقى على الجراح الغائرة ، فتتلوث بدم هذه الجراح ، من غير ان تبلغ حد البلسمة ..

.. وتابعوا ، بصبر طويل ، محاولات تشكيل الحكومة ، تلك التي لا تولد قابلة للحياة الا اذا جمعت بين الاعداء، ووفقّت بين الخصوم الذين ينبغي ان يتناسوا

ما حدث ، ويتصافحوا من فوق الضحايا والدماء ،ويتعانقوا ويتبادلوا القبلات .. هكذا تسدّ الفجوات ، وتراب الصدوع بتلفيق التسويات واجراء المصالحات المنافقة ..

ولم لا ؟ اليست السياسة هي « فلسفة الممكن » ؟ ..

ويتساءل الناس : حتى ولو انحدر هذا الممكن الى درك التعهّر والدعارة في الفكر والمسلك ؟

(٣)

وتابع الناس تحركات « المثقفين » الحياديين التي وصلت متأخرة ..

وكان المثقفون الملتزمون قد « سجلوا موقفهم » ببيانات ومبادرات كتابية فردية دلّت على وعيهم لدورهم ومسؤوليتهم، وان كانوا قد تألوا لمبادرة مسؤول عن مؤسسة ثقافية ، اصدر ، من غير استشارة رفاقه ، بيانا حيّيا ملتبسا لا يعبر عن خط المؤسسة التي ينتمي اليها !

اما « الحياديون » ، فقد عقدوا عدة اجتماعات استدراكية اتفقوا فيها على اصدار بيان « يعالج الامور من جذورها » ، ولكنهم اختلفوا على هذه الجذور ، فنام البيان .. حتى كتابة هذه السطور.. ومن الافضل ان يظلّ نائما ، حتى لا يخرج بيانا ملفّقا .. كالحكومة المنتظرة !

الا ان يكون مفهوم الثقافة والمثقفين قد تطور في لبنان بحيث اصبح هو ايضا « سياسة الممكن » !

(٤)

مزيّفون نحن ، في معظم افكارنا ، وفي معظم مواقفنا ...

وغير صادقين نحن ، غالبا ، لا مع الاخرين ولا مع انفسنا ...

ومفتقدون نحن الاخلاص والبراءة في التحرّك والتعامل ...

وجميع الازمات التي نواجهها ، على كل صعيد ،نعالجها بالتزييف والنفاق والرياء ، لاننا ننهيها جميعا ، بالفة ما بلغت من الخطورة والخطر على حياتنا وحياة الاجيال التالية ، بالمصالحة الكاذبة ، والحلول المنافقة ،والتسويات المرائية .. ومن الطبيعي ، عند اول هبّة ريح ، ان تنهار المصالحات والحلول والتسويات ...

(٥)

كان ، في اثناء المحنة ، قد شارك في بعض المؤتمرات، وحضر عددا من اللقاءات ، وعقد مع اصدقاء له ورفاق كثيرا من الاجتماعات ، واسهم في اعداد بعض البيانات ..

ولكنه يدرك الآن ، اكثر من اي وقت مضى ، ان المؤتمرات واللقاءات والاجتماعات والبيانات قد تكفي « لتسجيل المواقف » والتعبئة العاجلة ، ولكنها ، في حياة الكاتب الملتزم ، لا يمكن ان تغني عن الاثر الادبي الفني الذي يبقى ، هو وحده ، الشهادة المعبّرة عن وجدان الكاتب والمتلقي في آن واحد .

(٦)

حين رفض ان يجيب على اسئلة الصحفيين ، كان قد صمّم على ان يتابع الصمت ، ذاك الذي لازمه اياما في اثناء المحنة وفي أعقابها ..

وكان واعيا انه لا يمكن ان يكون صمت المحايد ، لان هذا الصمت حياد .. وهو لم يكن يوما بالمحايد .انه صمت المنحاز ، صمت الملتزم .

وكان واعيا انه ربما كان من مصائب الكاتب العربي انه لا يحسن الكلام العميق ، لانه لا يحسن الصمت العميق، ذلك المتوغل في احشاء الحقيقة ، والذي وحده ، يهيء للكلمة ان تؤدي دورها ، كالرصاصة والبندقية ..

واذن ، فلماذا لا يصمم ، الآن ، على الابتعاد عن كل ضجيج سطحيّ ، لينصرف الى عمل صامت سيتطلب في تقديره فترة من الزمن قد تطول .. عمل روائي كبير يكون شهادة ووثيقة للمجتمع اللبناني المعاصر ، هذا الذي يقوم كثير من دعائمه على الزيف والكذب والتشوّه. والذي تطمح اجياله الجديدة الى اقامته على دعائم اخرى من الصدق والبراءة والاخلاص ..

(٧)

هذا الصمت العميق ، هو الذي سيحاول ان يلتزمه في الفترة القادمة ، منطويا على الكتب والمراجع ، منتشرا في داخل الحقائق والوقائع ، مدققا في اختيار نماذجه البشرية ، المزيفة المنافقة ، والمصارعة من اجل مجتمع صحي سليم .

واذن ، فهو محاول منذ الآن ان يتفرغ لكتابة الرواية ـ الشهادة ـ الوثيقة ، متيقنا من ان هناك رفاقا له ، من الكتّاب اللبنانيين الملتزمين ، سيعملون هم ايضا ، كل في ميدانه ، لرسم صورة صادقة ، واقعية ومستقبلية في آن ، عن لبنان الذي لا يستطيع الا ان ينفض عنه ، مع الاجيال الجديدة الواعية ، رماد الزيف والتشوّه ، لينبعث وطنا حقيقيا يشارك في بناء حضارة عربية جديدة .

من اجل ذلك ، رحماك ايها الصمت العميق ، وحنانيك ...

بيروت